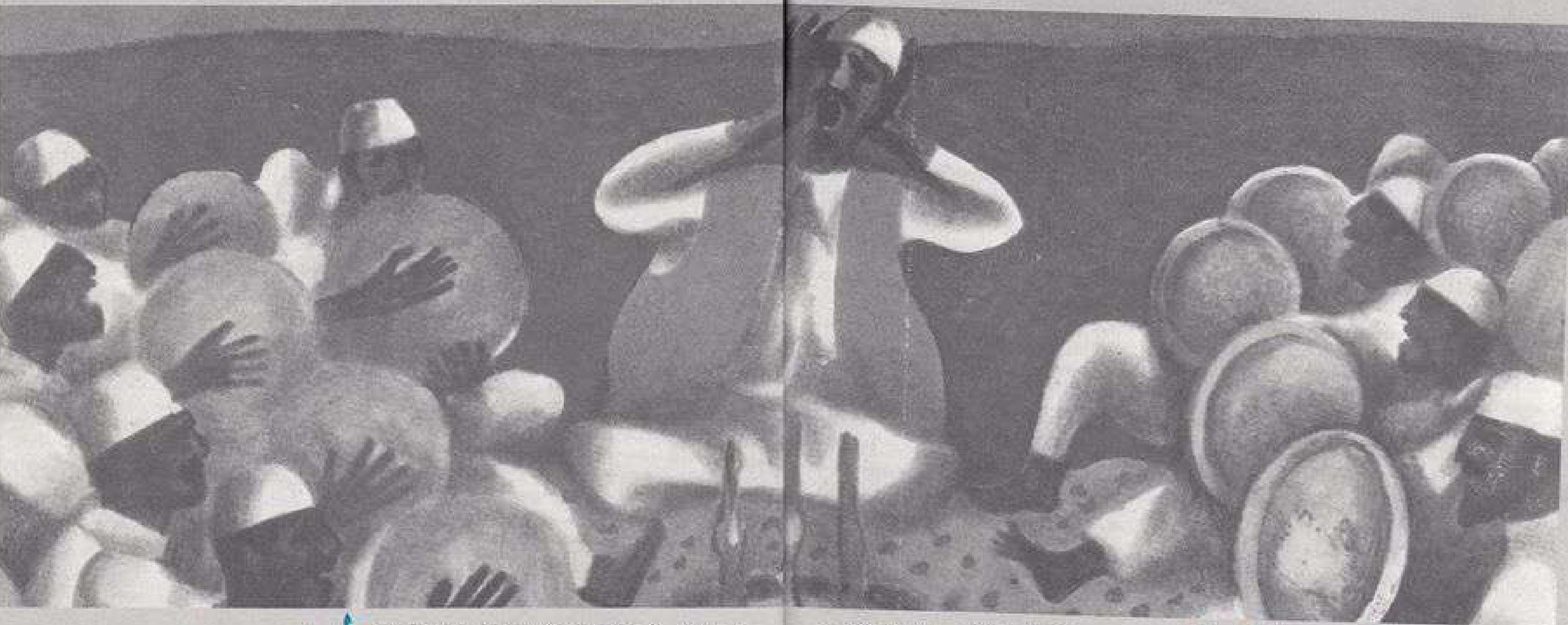


ذكريات رمضانية في غدامس

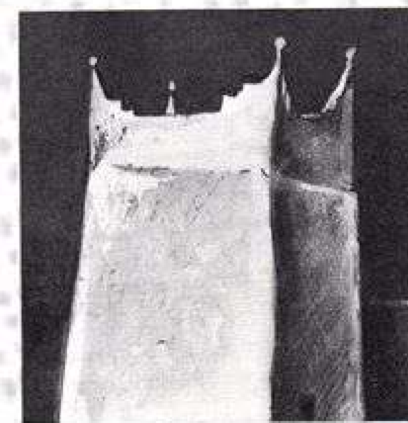
ان رمضان المعظم الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نصومه ابتغاء وجهه الكريم، وتقرباً منه تعالى، والتماساً لرحمته عز وجلّ، تحول في أغلب البلدان الاسلامية الى شهر السمر والعادات الرتيبة وربما السيئة، والاسراف في المأكل والمشرب، ثم الكسل والنوم نهاراً وترك العمل أو الاقلال منه في أحسن الظروف، وبهذا فقدت الفائدة المرجوة من الصوم سواء منها الروحية أو الصحية، دون أن أنسى القلة التي بقيت محافظة على شعائر هذا الشهر، وتقضيه في العمل الدنيوي المنتج كبقية الشهور، وتضيف اليه ما شاء الله من الطاعة وقراءة القرآن الكريم وصلاة التراويح والتهجد، فهذه حقا لها أن تنتظر الجزاء الأوفر من الله تعالى، اذ أن صيامها لم تشبه شبهة ولا شائبة.

واني لا أدعو بهذا الى التقشف والتقتير والجهد العضلي في هذا الشهر ولا في غيره من الشهور، بل الى الوسط، الحسنة بين السيئتين، (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا)[1] ولا أدعو

أيام زمان

لترك الزينة والاحتفالات في هذا الشهر ولا في غيره أيضاً، ولا أطالب الجميع بالاجهاد نهاراً والاعتكاف في المساجد ليلاً، (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)[2]، فلا ضير على الصائم أن يخفف من أعباء العمل ويترفه في المأكل والمشرب ليلاً، ويأخذ حظه من زينة الحياة الدنيا في المسكن والملبس والمركوب، ولكن بقدر معقول لا يطغى الروح على الجسد، ولا الجسد على الروح، علينا أن نتذكر دائما أن الحياة هي أخذ وعطاء والسعيد فيها من أعطى أكثر مما أخذ.

ان لرمضان في جميع البلدان الاسلامية سواء منها العواصم الكبرى أو القرى طعمه الخاص، واستعداداته المتكررة برتابة كل عام، فغدامس كغيرها من المدن العربية الاسلامية العريقة، لها عاداتها وتقاليدها، واستعداداتها الرمضانية، الا أن الذي يعرف غدامس الآن لا يعرف كيف كانت أيام زمان، فوجهها الحاضر لا



يشبه وجهها الماضي الذي عشناه حتى السبعينات في شيء، بعد أن هجرت المدينة القديمة وتحول السكان الى المدينة العصرية الحديثة، وبهذا تغيرت أيضا العادات والتقاليد الاجتماعية بأسرها الى نمط آخر. فلم يعد ذلك التكافل والترابط المتين بين العائلات والأسر نراه الا في أضيق نطاق، تنوسيت بعض العادات وأحدثت أخرى، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. فهذه المدينة التي بقيت قرون طويلة تعيش حياة رتيبة مملة، تذكر الغريب ببعض قصص ألف ليلة وليلة، من حقها أن تنطلق من عقالها، وتنبذ ما لا يتفق مع الحاضر، وتحدث لنفسها نمطاً آخر في الحياة أعلى أن تبني حاضرها على ماضيها وتجعل منه صورة أفضل. وتدع المترمتين يندبون الأيام الخوالي، كما ناح آباؤنا وأجدادنا على أيام العصملي وحضر تلزي، وواجبنا المقدس الآن هو المحافظة على هذه المدينة الأثرية التي تضارع البتراء وصنعاء، وقد تبزهما في بعض الجوانب.

كانت غدامس القديمة مدينة جامعة للمتناقضات، الغناء والرقص، التقوى والتهجد الثراء الفاحش، الفقر المدقع، البذخ والتقتير، الجود والبخل، الكد والكسل، العلم والجهل[3] الجمال والقبح، البياض والسواد، الفوارق الطبقية المتعددة، الرتابة والنظام في كل شيء، حتى في سقي المزارع، والجلوس في الشوارع والمرور فيها. فلكل شارع[4] أهله وطبقته، وفي داخل هذا المجلس طبقات أيضاً، فجزء للشيوخ، وآخر للكهول وثالث للشباب، وهؤلاء على نوعين، مستجدين ومتقدمين، أما الصبيان فكانهم خاص، الكل يعرف مكانه، فويل لمن حاول اجتياز الحدود، فالجميع له بالمرصاد وعلى رأسهم والده وأخوته.

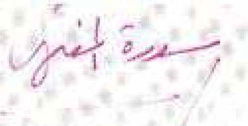
ان الجد والانتاج هما الطابع الغالب في النهاية، فلا نكاد نجد من يكسل عن أداء الواجب. الكل يعمل في المزارع صباحاً ومساء، وما بين ذلك خاصة في أشهر الصيف فتتحول المجالس الى مصانع للصناعات الخفيفة ان جاز التعبير. هذا يظفر خوصاً، وذاك يخيط قفة أو قبعة أو حصيراً وآخر يصنع زنبيلاً أو مروحة أو يعالج ليفاً أو يصنع حبلاً أو شباكاً أو مروحة أو جوربا أو قفازاً أو طاقية الخ. الكسول فقط يمسك بيده دون أن يعمل شيئاً وربما أمسك هذا مخطوطاً ليقرأ على الحاضرين بعض القصص أو الأخبار، وقد تتحول هذه المجالس الى شبه ندوات، فتنجر عن ذلك المداخلات والمساجلات وتختلط بالأقوال الفقهية قال النبي صلى الله عليه وسلم، فينطق بالحديث الذي قد يكون ضعيفاً أو مطعوناً أو منكراً فيرد عليه من أوتي حظاً من العلم في هذه الحالة، ان هذا الحديث ليس موجوداً في البخاري ولم يروه مسلم ولا النسائي ولا الترمذي ولم يذكره ابن ماجه ولا النووي فمن أين أتيت به، قد وجدته في نزهة المجالس، ماذا نزهة المجالس؟ انه كتاب منكر لا تجوز قراءته الا للعلماء وكيف يكون منكراً وقد ألفه مسلم، حوار وحوار ونقاشات حادة قد تصل الى مهاترات وملاكمات ولكنها في الغالب تنتهي بفائدة فالمستبرين دائما أكثر من الجاهلين ومدعي العلم. فيقتنع الجميع بوجهة نظر الشيخ فينتهي المجلس بفائدة لا بأس بها.

حياة اجتماعية عريقة وضعت الآن كلها عن كواهل أصحابها، وكان الواجب أن توضع في المتاحف بعد أن تدرس دراسة جادة موثقة، لقد اقتلعت ثورة الفاتح من سبتمبر العظيم السكان دفعة واحدة واجتازت بهم قروناً طويلة في أقل من عشر سنين واذا بهم في مدينة تعتبر من أحدث المدن وأرقى نظام وتخطيط، فالشكر لله والتحية لقائد المسيرة العظيم.

البوادر الرمضانية

ان تعوُّد الأطفال على العادات المحلية يتم تلقائياً بدون ما حاجة الى تلقين من أحد، يفتح الطفل عينيه على عادات وتقاليد تمارس أمامه كل عام وفي وقت معين فيتشربها فتصبح جزءاً من حياته، فما يكاد يحين وقتها حتى يسمع تعابير ويرى حركات تدل على قربها فيبدأ الحنين اليها حتى يعيشها كما عاشها في السنين الفارطة. والبوادر الرمضانية في غدامس تبدأ باهلال شهر رجب، ففي اليوم الأول من هذا الشهر يبدأ أئمة وشيوخ البلد قراءة صحيح البخاري في جميع مساجد الجمعة الذي عليهم أن يختموه في السابع والعشرين من رمضان، كما يكثر العجائز والشيوخ الصيام في هذا الشهر، لأنه شهر الله، وشعبان شهر النبي أما رمضان فشهر الأمة المحمدية، وربما تابع بعضهم صيام الثلاثة أشهر كلها.

في ليلة 27 من رجب تعد أطعمة شهية وموائد غنية



ويستدعي الأقارب بعضهم بعضاً كما عليهم أن يتبادلوا الأطعمة بينهم دون أن ينسوا الفقراء والمعوزين، وقبل صلاة العشاء يقرأ أحد الشيوخ في المسجد العتيق بحضور جمع كبير من المواطنين قصة المعراج المنسوبة لابن عباس، فيعيش الجميع خاصة الأطفال مع هذه القصة الخيالية لحظات روحية فيصعدون معها الى السماء السابعة، فيتعرفون على الجنة والنار وشجرة المنتهى ثم يعودون الى الأرض ومعهم خمسة صلوات عملية بعد أن كانت خمسين خفضت بعد مراجعة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بايعاز من النبي موسى عليه السلام لرب العزة.

ان أثر اقتناع الأطفال بأهمية الصلاة والمثابرة عليها تراه واضحاً على وجوههم بعد أن يكونوا قد استمعوا وفهموا شيئاً من هذه القصة التي حاول فيها كاتبها أن يخلط فيما بين الصحيح الواجب الاتباع، والخيال الذي بلاشك يثير النقاش. وهذا هو ما يحدث في أسمار هذه الليلة وفي يوم غد الذي تتحول فيه مجالس القوم الى شبه ندوات تنتهي غالبا باكتساب شيء من العلم الصحيح.

في شهر شعبان لا ينقطع الصيام ولكنه يخفض، وفي يوم 14 منه يزعمون أن قطرة من ماء زمزم تنزل في عين الفرس الذي تمر مياهه في السواقي المارة داخل المساجد. فالواجب على الجميع الاغتسال في هذا اليوم أو الليلة التي تليه، فيتوافد الذكور والاناث الى المساجد لتأدية هذا الواجب المزعوم، علماً بأنه يوجد بكل مسجد مكان للذكور وآخر للنساء.

كما عليهم صبيحة هذا اليوم أن يأكلوا الفول والحمص المطبوخ ويوزعوا منه هدايا على الأقارب وفي المساء تعد (المرفوسه) نوع من الحلوى تصنع بدقيق القمح والسمن والسكر وتوضع في صحن كبير، يوضع في وسطه قالب سكر وتغطى بأنواع من الحلويات، وفي صبيحة اليوم التالي توزع على الجيران والأقارب. وهذه المرفوسة لا يطالب بها الا من له أطفال دون البلوغ والطفل الذي سيصيم في عامه الأول عليه أن يصنع منها صحناً كبيراً جداً ثم لا يطالب بها بعد هذا. أما في الليل فتعد مائدة غنية فيتكرر فيها ما تم في ليلة 27 رجب.

كما أن هذا الشهر هو موعد لاعلان الخطبة. فالصائم لأول مرة في هذا العام عليه واجبان، أحدهما مخير فيه وهو اعلان خطبته للفتاة التي سيتزوجها، والثاني ليست له فيه حرية اذ هو واجب ودَين يؤديه لأترابه، وهو اعداد الكثير من الحلويات على اختلاف أنواعها لتوزيعها في احدى ليالي رمضان على أترابه وغيرهم.

ففي يوم 15 شعبان تحضر نساء الأقارب لتعمير الخزانة بهذه الحلويات ثم تعطي للصائم أو الصائمة مفتاح الخزانة، وعليه أن يحافظ على ما بداخلها ولا يتصرف فيه الا في حدود معقولة حتى يتم توزيعها كما ذكرنا، وبهذا يبرهن على انضباطه ورشده.

اقتراب رمضـان

اذا اقترب رمضان يتذكر الأهالي كل الأحاديث النبوية التي رويت عن ثبوت الهلال، وما قاله السلف الصالح، فلا نكاد نسمع في مجتمعاتهم ومناقشاتهم الا ذكر رمضان وفضله (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) (الشهر تسعة وعشرون فان غمّ عليكم فأكملوا الشهر ثلاثين) (كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لي وأنا الذي أجزي به)... فسرعان ما يحفظ الأطفال هذه المقولات وغيرها وتتكون لديهم ثقافة دينية لا بأس بها.

أما ليلة الانتظار فتتحول صمع المساجد ومرتفعات البلدة الى أبراج المراقبة، والنساء تحتذ شرفات المنازل لذلك، وكم من نكت سمعناها في هذه المناسبة، لقد كان فلانا رحمه الله يرى الهلال في الماء الراكد، وان فلانا كان أول من يرى الهلال لحدة بصره، فيقول آخر بل لأنه فلكياً يعرف منازل الهلال الخ فاذا شوهد الهلال وقل أن يشاهد لأن من يأكل لحم الجمل يضعف بصره - كما يقولون - يسارع الشاهد الى المحكمة الشرعية التي عليها أن تفتح أبوابها من المساء ليستقبل القاضي بها الفقهاء والمفتي ويصلون المغرب فيها. فاذا حضر الشاهد الذي تأخذه بلا شك هيبة المحكمة خصوصاً اذا كان عامياً، يحصره القاضي عصراً ويدهشه بأسئلة لا تخطر على بال، كيف رأيته، هل هو سماوي، أم مدني، أم مكي الخ... هكذا يقولون عن القاضي أيام زمان ومناقشتي بعض المسنين عن السبب أجاب بأن الشاهد أن كان صادقاً لا يتلجلج ولا يذكر الا ما رأى، أما ان كان كاذباً أو واهماً فيتلجلج وبهذا يسقط القاضي شهادته.

اذا لم يعتمد القاضي شهادة الشاهد يخرج مكسوفاً فيقول له العامة أنت عليك بالصيام لأنك رأيته. أما اذا ثبت الرؤيا بشاهدين أو جماعة مستفيضة فيأمر القاضي المنبه الذي عليه أن يتواجد بالمحكمة بأن يطوف شوارع المدينة وأزقتها وفي يده بندير ينقر عليه منادياً، رمضان رمضان. فيسرع حينها الجميع الى المساجد التي تزخر فيها عادة صلاة العشاء في ليلة الانتظار فيصلون العشاء والتراويح، ففي مساجد الجمعة الصلاة فيها بالتقصير. أما التطويل فيكون عادة في بعض المساجد الصغيرة المتزوية.

الأطفال البالغين يسرعون الى الشارع كل جماعة كانت قد أعدت منزلاً خاصاً لسمرها بما يحتاجونه من البنادير وآلة الشاي والخضران وورق اللعب الخ... ان رمضان بقدر ما يخافه الكبار يتوق اليه الأطفال للحرية التي يجدونها فيه، ولأن الشياطين والعفاريت والغيلان في عرفهم تصفد ولا يسمح لها بالتحرك الا بعد انتهاء رمضان، كما تتوقف عادة الطرق الصوفية والأعراس والدروس الفقهية، لا شيء سوى الصوم وقراءة القرآن وصلاة التراويح وقراءة كتب السنة، العمل بالمزارع يخف كثيراً، البعض

يستبدل الليل بالنهار فيعملون بالمزارع بعد صلاة التراويح أو بعد الفجر. خصوصاً اذا كان الفصل صيفاً والعمل لا يحتاج الى كثير من الاضاءة كالعزيق مثلاً. أو الحصاد أما البنات فيترنمن في الأسطح بأغنيتهن الرمضانية المفضلة: قوموا كلوا واشربوا هذا شهر الخير جاكم.

تحيي المدينة لياليها الرمضانية في العبادة والصلاح والتقوى، المتبتلون في المساجد. صلاة التراويح بحزبين من القرآن، قراءة ربع الحزب في كل ركعة، ثمانية ركعات ثم ركعتين بالكافرون والاخلاص والشفع والوتر. وبعدها السمر في المنازل شتاء وبالشارع صيفاً أو مرتفعات المزارع، وقبل الفجر بساعتين تنقلب المدينة رأساً على عقب بسبب فقرات أبي طبيلة.

أبو طبيلة

أو أسكار (المُقيِّم) كما يسمونه في غدامس، وهو شخص يعهد اليه بايقاظ النائمين لاحضار وتناول السحور، فلكل شارع من الشوارع السبعة مُقيِّمه الخاص، وفي الوقت المحدد قبل ساعتين لطلوع الفجر تقريباً يجتمع هؤلاء السبعة كلهم في سوق القادوس فيقومون ببعض الألعاب والرقصات، والنقرات، ثم ينطلق كل واحد منهم الى شارعه يطوف الأزقة والساحات ينقر بنديره ويترنم بالاهزوجة الرمضانية التقليدية المعروفة: يا صائمين رمضان × يا طالبين الغفران × قوموا كلوا واشربوا على طاعة الرحمن × قوموا يا عباد الله × كلوا واشربوا على طاعة الله والرسول × صلي وسلم وبارك على نبينا محمد صلّوا عليه.

تهب النساء على أثره من النوم وتعود الشابات من السهر لتحضير السحور، والأكلة المفضلة هي البازين بالدشيش، والقليل يفضلون الخبز أو الكسكس أو المكرونة أو المصفوف[4]، ويتقاضا المقيم أجرته يوم 15 في رمضان فتطوف احدى قريباته على منازل شارعه لتتقاضا منهم الأجرة المقررة.

أبو ستة: هو أحد مؤذني مساجد الجمعة، ففي كل ليلة وعلى مدار السنة، وقبل طلوع الفجر بنصف ساعة تقريباً، يصعد هؤلاء الى صوامع المساجد فيترنمون بأدعية وصلوات تقليدية معروفة، فتهتز الصوامع كلها في ذلك الهزيع من الليل بذكر الله تعالى فتهتز معها قلوب المؤمنين المتبتلين: اللهم صل على المصطفى × بديع الجمال وعز الوفا × وصل عليه كما ينبغي × الصادق محمد عليه السلام × صلاة المسبح بكل لسان × وأملاكه أجمعين الكرام × على من أتى بالهدى والبيان × شفيعنا محمد عليه السلام... أما في الشتاء فيطوف هؤلاء في الأزقة والشوارع، وهم أيضاً يتقاضون أجورهم مرة في العام بالطريقة التي ذكرتها عن المقيمين. وقد رويت عن كثيرين أنه في الماضي كان هناك أيضاً (مقران) القرّاء،

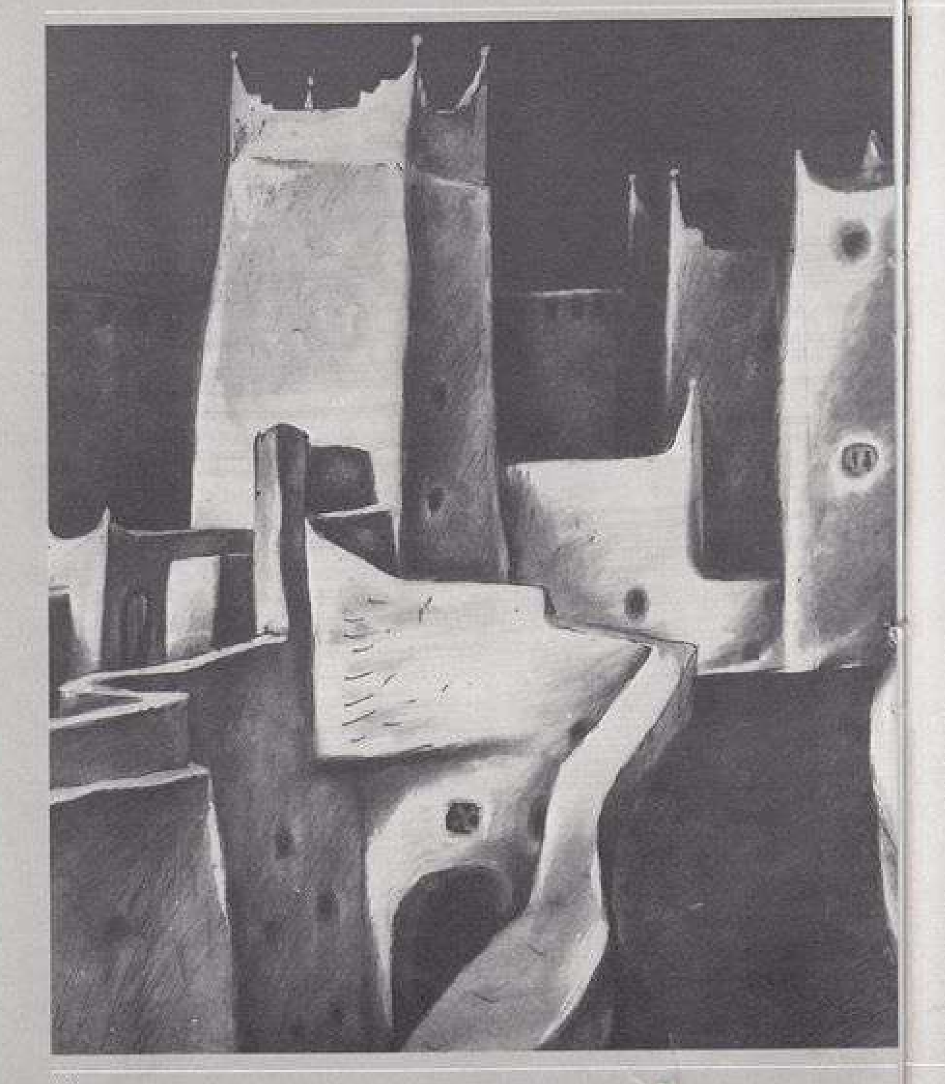
وهم يبيتون في صوامع المساجد، وبعد منتصف الليل يبدأون قراءتهم للقرآن الكريم والصلوات والتسابيح حتى يقرب موعد أبو ستة، وأذكر أني أعرف مثل هؤلاء يبيتون في صومعة جامع الزيتونة في تونس، وقد أحييت معهم ليلة من الليالي.

بعد تناول طعام السحور يذهب البعض للمساجد للتهجد وصلاة الصبح، وبعدها يعودون لمنازلهم، ومنهم من يذهب للمزارع ان كان الفصل صيفاً الا أنهم يعودون سريعاً لفتح متاجرهم والتجمع في الشوارع، والويل كل الويل من الذين لا يفهمون حكمة الصوم ومعناه الصحيح، فهؤلاء تنقلب مجالسهم الى عكاظيات بدون روائع مذهبة، بل بمهاترات وأحاديث سطحية ولغو لا يقصد منه سوى تمضية الوقت الثمين في سخافات رخيصة، دون أن أنسى الذين يجتمعون في المساجد لقراءة القرآن وصحيح البخاري. هكذا حياة رتيبة تتكرر كل يوم، ما عملناه بالأمس نعاوده اليوم، عام بعد عام، قرن بعد قرن صور متشابهة في كل الأقطار الاسلامية، ولكنها لا تخلوا من نفحات التاريخ، وصور من التراث المتعدد الجوانب والاتجاهات، الذي يجب أن يدرس بامعان وتبصر.

جوانب من العرف الاجتماعي في رمضان

الصائم لأول مرة ذكراً كان أو أنثى قل أن يتناول طعام الافطار في منزله، بل على موائد الأقارب والأصدقاء والجيران، الكل يسعى لاستضافة الصائمين المستجدين، وقبل حلول الشهر أو في أيامه الأولى تتسابق النساء في تحديد موعد الليلة أو الليالي التي ستستضيف فيها هؤلاء بالتفاهم مع ذويهم، وبهذا تحصل عدة فوائد متوخاة، منها التآلف والمحبة باجتماع الأتراب عدة ليال في مكان واحد وعلى مائدة واحدة وكأنهم في حفلات، قد لا يستطيع الفقير تأمين وجبة غنية كل ليلة لابنه الذي سيقضي نهاره جائعاً لأول مرة في حياته وكامل الشهر، وبهذا يُضمن له وجبة شهية غنية تعينه على الصيام. وقد يتكرم صاحب الدعوة بتوزيع بعض النقود على هؤلاء الأطفال بهذه المناسبة، كما أن نساء الأقارب تتحفهم أيضاً بالنقود.

على كل مسجد اقامة حفل شاي لشباب وأطفال الشارع، في منزل السمر، فيتفقون على مواعيد هذه الحفلات، والبداية من الكبير ثم الصغير فالأصغر، وبعد صلاة التراويح في الليالي المحددة يحضر الشباب والأطفال الى مكان الاحتفال فيشرعون في طبخ الشاي، ثم تنطلق الرسل لتنادي الأطفال الصغار من منازلهم، وحتى من ولد في يومه من حقه أن يستلم حصته من الحلويات التي تبعث له ولأمثاله في بيوتهم، وعند تكامل الاجتماع توزع على الحاضرين كئوس الشاي وما لا يقل عن كيلوجرام من الحلويات





المختلطة، محلية وغيرها. وبعدها يغادر المدعوون المنزل. أما صاحب الحفل وزملاؤه فلهم أن يحيوا ليلتهم بالرقص والغنى ان أرادوا. وما قيل عن الذكور يقال عن الاناث أيضاً. يجتمعن في أحد المنازل لنفس الغرض. هناك فارق بسيط فقط بين الذكر والأنثى. فهناك بعض الحلويات توضع للذكور دون الاناث، وبعض آخر يوضع للاناث دون الذكور. بل من ليس له أطفال فهؤلاء ان تقدموا في السن ولم يرزقوا بأولاد يبعث لهم بحصصهم في منازلهم دون أن يكون هذا ديناً عليهم بينما بقية الأطفال فيعتبر هذا ديناً سيسددونه عام صيامهم.

مـائـدة رمـضـان

يقولون في غدامس ما جمعت غلة في عام يزدرده الجمل في لقمة، وما أدخر في احدى عشر شهراً يأتي عليه رمضان. ان المائدة الرمضانية في غدامس غنية جداً الى حد الاسراف الممقوت سواء في الماضي أو الحاضر. الأفطار عادة يكون ببعض تمرات جيدة، وبعدها حساء القصب بالسكر يعد بطريقة ممتازة، من بعده الشربة، ثم المرق، ثم البريك، ثم الكفتة، الدجاج المشوي، المهلبية، العجيرة، القطائر... الغلال بأنواعها كل وقت وفاكهته أما السحور فلا يعد الا من نوع واحد فقط.

لـيـلـة الـقـدر

حينما يقترب الشهر من النهاية يبدأ الحديث عن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. تبدأ بوادر هذه الليلة من ليلة 21 ففيها تختم ختمات من القرآن الكريم في مساجد الجمعة بعد صلاة التراويح، ويتكرر هذا في ليالي الوتر التالية وليلة العيد وذلك تعرضاً لبركة ليلة القدر التي ورد أنها في ليالي الوتر. أما في الأدب الشعبي فليلة القدر هي شيء آخر مهول، يرى ليلاً. فيقع الرائي فريسة للخوف، فيتلجلج لسانه، ولا يقوى على الكلام الا من منَّ الله عليه بخير كثير. يزعمون أنهم يرون شعاعاً من نور، أو يسمعون جلبة في السماء كطي الحصير، أو يرون النخيل والأشجار والمباني العالية ساجدة خاشعة لله تعالى، وياما سمعنا من الحكايات الوهمية وقد تنسب الى أشخاص لا يستهان بعقولهم، وهم يعتقدون أن من رأى شيئاً من ذلك وطلب من الله شيئاً في تلك اللحظة يحصل عليه في الحال. ومن هذا المنطلق أدخل الظرفاء والقصاصون شيئاً من النكت المضحكة. فهذه امرأة أدخلت رأسها في كوة لترى شيئاً ما واذا بها تفاجأ بليلة القدر ولما كان شعرها قصيراً ورأسها كبيراً لم تفكر في شيء الا أن تطلب من الله أن يطيل شعرها القصير ويصغر رأسها الكبير، ولكنها تخطيء فتطلب العكس فاذا بشعرها يتحول كحبات من زبيب أسود ورأسها يتحول الى شبه صخرة، ولم تستطع اخراجه من تلك الكوة. فبقيت على هذه الحالة الى العام القادم فمنَّ الله عليها برؤية أخرى فدعته أن يعيدها كما كانت فتم لها ذلك.

كم تمنينا على الله تعالى ونحن صغار أن يجعلنا من المحظوظين بهذه الرؤيا ويشبتنا عند ذلك لنتمنى على الله الأماني، واد من ذهب، مغالبة الأقران، لعبة جميلة لا يملكها أحد، جداتنا فقط كن يوصيننا اذا منَّ الله علينا بذلك أن نطلب منه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقينا عذاب النار. الا أننا من قرارة أنفسنا كنا سنطلب غير ذلك، شيءٌ واحد فقط كنا نخافه هو أن تتلجلج ألسنتنا ولا نقوى على الكلام عند سنوح هذه الفرصة.

خـتـمـة صـحـيـح الـبـخـاري

بعد صلاة الظهر من يوم 27 يجتمع الجميع في مساجد الجمعة، وبعد قراءة ختمة من القرآن الكريم، يختمون ختمة البخاري، الذي بدأوا في قراءته من أول يوم من رجب وقد يختمون بعض الكتب الصحاح، أما البخاري فلا يختم الا في هذا اليوم. وباحتفال مهيب جداً، يحضر الجميع الى المساجد، فيتشكل الشيوخ في مجموعتين، صفان متقابلان كل واحد منهم أمامه محمل يعلوه الجزء الأخير من الصحيح، فيقرأ أكبر الشيوخ الحديث الأخير فيه (...كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان الى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم. فلا يكاد الشيخ ينتهي منها حتى يضج المسجد بمئات الأصوات بهذه التسابيح مائة مرة ثم يقرأ الشيخ دعاء مطلعه: ختم الصحيح بحمد ربي وانتهى، ثم قراءة الفاتحة وأخيراً توزع الحلويات على جميع الحاضرين وباسراف. وأثناءها يتقدم كل من ولد له مولود في تلك السنة بتسلم تميمة من الشيخ الذي عليه أن يعد مجموعة منها، ولا يتعدى ما كتب فيها (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) فتغلف هذه التمائم في جلد أحمر وتعلق المواليد.

ان البنات أيضاً دون سن البلوغ يشاركن في هذا الحفل، فيجتمع كل الأطفال ذكوراً وإناثاً، وحتى المواليد الصغار يجيء بهم العجائز بعد أن يلبس الجميع أحسن ما عندهم من اللباس.

يـوم الـعـيـد

لا تحل ليلة انتظار هلال العيد حتى تكون جميع المنازل مهيأة بما تحتاج اليه من التبييض والتنظيف، وتحضر الحلويات بأنواعها: القراقش، الغرايبة، البقلاوة، حمص، قلية القمح،... وفي ليلة الانتظار يتكرر ما تم ليلة انتظار هلال رمضان، فاذا ثبتت الرؤيا ينطلق المنبه في الشوارع والأزقة ببنديره وفانوسه وينادي: عيادي، عيادي وسنين دائمة. فسرعان ما تنقلب المدينة الى أفراح وطرب، انها الليلة الأخيرة ولابد أن يحييها الأطفال كأجمل ما يكون، وفي آخر الليل يقوم الشباب بتنظيف شوارعهم ورشها بالماء، كما أن على البعض منهم الذهاب الى المساجد لاعداد الثريات وملئها بالماء والزيت[6] وتنار المساجد قبل آذان الفجر، ان يوم العيد يخص المسجد بمصلي الصبح أكثر من أي يوم آخر.

زكاة الفطر يخرجونها بعد صلاة الفجر، وكانوا يدفعونها لحماً وشعيراً وتمراً كما أن معايدة أقرب القريبات لأقاربهن تكون في هذا الوقت، والكلمة المأثورة التي تقولها المرأة لقريبها بعد التحية المألوفة (ان شاء الله نعيد في مكة) والرد (أجمعين) أما معايدة المرأة لمثيلتها: (الله الله والسماح) والرد (الله يسامحك حتى أنا نبي سماحك).

يعود الرجال للمساجد لصلاة العيد وهم في أبهى وأصخم زينة، فسرعان ما يتكامل الاجتماع فيصبح المسجد كخلية النحل فيرتفع منه الدعاء والتهليل (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا اله الا الله، اللهم اجعلنا لك من الشاكرين) بينما أحدهم يمسك بمرشة بها ماء الورد أو الزهر والعطور يرش منها الداخلين الى المسجد. فاذا تكامل الاجتماع وحل وقت الصلاة يذهب مؤذن المسجد ليستدعي الامام من منزله الذي لا يكون بعيداً. فاذا حضر تؤدي صلاة العيد حالاً، ثم يستمع الجميع الى الخطبة، وبعدها يصطف الكبار ليسلم عليهم الشباب مصافحة قائلين لبعضهم (اللهم أغفر لي ولأخي هذا) وبعدها ينطلقون للمعايدة على الأقارب في منازلهم التي تكون أبوابها مفتوحة وفي انتظارهم، والكلمة المأثورة التي تقال (عيدكم مبارك) والرد (علينا وعليك) وهناك صيغ أخرى ولكن هذه هي الأكثر اصالة. المنازل تكون في هذا الوقت خالية من الرجال، ولابد من وجود عجوز في البيو لاستقبال الجميع. أما صاحبة المنزل فتكون في احدى الحجرات ولا تخرج وتسلم الا على ذوي الأرحام، لا جلوس ولا تقديم أي شيء للرجال بل يبعث لهم فيما بعد بعض الحلويات في منازلهم، أما الشباب غير المتزوجين يقدم لهم طبقاً من قلوب البطيخ، تفاؤلاً بالكثرة وبياض المستقبل. فيأخذون منه حبات قليلة ولكن الأطفال عليهم أن يصحبوا معهم كيساً معداً خصيصاً لهذا ليأخذوا منه أنواع مختلفة من الحلويات ينوؤن عن حملها أحياناً.

ان كبير الأسرة عليه أن يعد طعام الغذاء لأقاربه جميعاً في هذا اليوم، ولكنه طعام عادي لا يكلف شيئاً البازين أو المعكرونة.

ثلاثة أيام بعد العيد تكون أيام فرح واحتفالات للأطفال، يعملون فيها الحراجيج في المزارع، يطبخون الشاي، ويتناولون الكثير من الحلويات المحلية، كل فرقة على حدة وتتميز فرقة (العراقب) ـ جمع عرقوب، تسمية شعبية للمستجد في الصيام ـ عن غيرها بالروعة والبذخ، وفي اليوم الرابع يختم باحتفال رائع فينزل الشباب من المزارع بأغانيهم ورقصاتهم، خاصة رقصة الباهوري، متوخين أن تقف كل فرقة في الحد الفاصل بينها والشارع الآخر، فاذا حدث اختراق فقد تحدث بعض المشاحنات والملاحات.

انني قد حاولت بهذه الكلمة المتواضعة اعطاء صورة موجزة عن رمضان في غدامس أيام زمان، أما الآن فقد تغير كل شيء، ولم يبق مما ذكرت سوى شيء قليل، الا أن المجتمع قد تغير عن ذي قبل تغيراً ملموساً.

الـهـوامـش:

1 ـ الآية 67 من سورة الفرقان.

2 ـ الآية 22 من سورة الأعراف.

3 ـ لا تجد في غدامس في أسوأ الظروف 5٪ لا يقرأون ولا يكتبون، وقد تجد فيها خريجين من الأزهر والزيتونة، ولكن بالمقابل لا تجد فيها امرأة تقرأ وتكتب.

4 ـ أن مفهوم الشارع في غدامس هو كمفهوم القبيلة، من آداب المرور في الشارع عندهم أن يترك الجانب الأوسع للشيخ والعاجز خاصة في الجادة، أي ممر الساقية، وان يأخذ الأقوى الحمل الثقيل من الشيخ ما داما سائرين في اتجاه واحد، لا يمشي الرجل وراء امرأة أجنبية بل تفسح له المجال ليتقدمها حالما تشعر بوجوده، وكذلك الشاب في الظروف العادية لا يسبق الشيخ.

5 ـ المصفوف هو كسكسي أو أرز، بعد أن يطبخ بالبخار يضاف اليه السكر والسمن والحليب الطازج، وربما أضيف اليه حبات من الرمان الجيد أو الزبيب، وأنواع المرق المستعمل للبازين في غدامس كثيرة جداً، منها: الملوخية، كوكا، دشيش، حريقة، حليب، ياكوا، تابل، ليدام،....

6 ـ كانت الثريا قبل أن نعرف النور الكهربائي تتكون من مجموعة قوارير مثل الكترس تغطي بحديدة مثقوبة، وفي هذا الثقب توضع فتيلة تتدلى في القارورة، واقتصاداً في استهلاك الزيت تعبأ القارورة بالماء ويصب فوقه قليل من الزيت، فاذا انتهى الزيت تنطفيء الفتيلة.